# جولة لغوية في كتاب النبات

## لأبي حنيفة الدينوري

## — ٣ —

### نموذجات من نوادره وفوائده

( الهبيد ) « طعامٌ لا يزيد عليه طعام يأكله الناس » كذا قال الأعرابي الذي اهتبد أي اتخذ من الهبيد ـ وهو حب الحنظل وبزوره ـ ذلك الطعام الشهي .

ويحسن أولاً أن نصف للقارئ نبات ( الحنظل ) وشيئاً من خبره وقيمته في نظر أهل البوادي ملخصاً مما ذكره ( الدينوري ) في كتابه :

تنسطح شجيرة ( الحنظل ) بأرشيتها ( أي حبال غصونها ) على الأرض كالقثاء . لكن ثمرة الحنظل كروية مدورة كصغار البطيخ لا مستطيلة كثمرة القثاء . وكنا الثمرتين تسمى ( جرو ) وتجمع على جِراء . فاذا كبرت الحنظلة وسمنت واخضرّت سميت حَدَجة وتجمع على حَدَج . حتى اذا تقدمت نحو النضج وظهر فيها خطوط تمتد بين قطبيها صفراء الى بياض وإذ ذاك تسمى خُطبانة . وتجمع على خُطبان . ثم تغلب على الخطبانة الصفرة وتعمّها وهو نهاية نضجها . وتأخذ في اليبس . فيسمونها صَرَاءة وصراية وتجمع على صَرَاء وصرايات وتلهو الجواري البدويات بالصرايات فيتراشقن بها كما يتراشق فتيات زماننا بكرات الثلج في مناطق الثلج بلبنان . قال شاعر العرب يصف جماجم الأعداء المفأقة في ساحة معركة :

( كأن مفالق الهامات منهم صَرايات تهادتها الجواري )



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أي ترامت بها الجواري وتراشقت . وسمى الشاعر الصَرَابة هديةً تهكماً . ولشدة مرارة الحنظل لا يرعاه إلاّ النعام . قال الدينوري : ( وقد زعم بعض من قد سمع العلم أن الظباء ترعاه ولم أجد ذلك معروفاً ) حتى إن مشافر البعير لا تقوى على استساغة مرارته . وربما غلط به البعير فوقع في فيه في أضعاف العشب فيمرض منه فيقولون : حَظِلَ البعير فهو بعيرٌ حظِلٌ . بطرح النون . والحنظل اذا اصفرّ ويبس وكان صَراءً كسروه واستخرجوا هبيده أي حبّه من جوفه . ويسمى هذا الكسر نقف واهتباد . ولا تسل عما يصيب ناقف الحنظل من احمرار العين وتهيجها حينما تصيبها مرارة الهبيد قال امرئ القيس :

( كأني غداة البين يوم تحمّلوا لدى سَمُرات الحيّ ناقف حنظل )

وهذا الهبيد الذي يُهتبد من أجواف الصَراء تتخذُ منه أعراب بوادي الجزيرة بعد تحليته طعاماً إذا صُب في الجفنة فاخرَ به الأعرابي طعام الناس كافة فيرفع عقيرته ويصيح ( تعالوا فانظروا لا يزيدكم عليه طعام يأكله الناس ) ولاستخراج بزور الحنظل بالاهتباد طريقة صناعية شاقّة وصفها لنا ( الدينوري ) وصفاً دلّ به على أن لعرَب الجزيرة حِذقاً بالأعمال الصناعية تُخرجهم عن ( الاستفراد ) : فاننا نعهد فيهم هذا الاستفراد في معيشتهم وحياتهم البدوية أي إنهم يعيشون كما يعيش المستعمر الأوربي في مجاهل أفريقيا : فهو يهيئ كل حاجاته وتكاليف حياته بنفسه . وهكذا نعهد البدوي فهو يصطنع طعامه وشرابه ولبوسه وسائر مؤونة بيته إلا اذا كان قريباً من الحواضر فيطرأ عليها . ويجتلب من حاجاتها ما لا يقدر على تحضيره بنفسه . أما ما ذكره الدينوري عن تحضير الأعراب للهبيد وطعامه فيُفهم منه أنهم كانوا يعالجونه مجتمعين معالجة العال لأعمالهم في الحضر لا مستفردين . ويجهزون منه كميات للتصدير الى الخارج لا مقادير قليلة على قدر طلب العائلة وسد حاجتها اليومية البيتية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالأعراب اذا رأوا الحنظل اصفرّ وأصبح صَرَاً وحان جنيه واهتاده جمعوا حباته تِلالاً ، ويتعمّم العمال ويلفّون فضل عمائمهم على أنوفهم خشية أن تدخل في أنوفهم مرارته (رائحته الخريفة فتهيج خياشيمهم وتدمع عيونهم) ثم يجتمعون على تلك التِلال بالعَمَد خَبْطاً خبطاً حتى يهشّموه كله (فيصبح بزره وقشوره كحب الحنطة وتبنها في البيادر) قال : ثم يذرّونه في مهب الريح فيطير قشره كله ويبقى الحبّ . هذا الحبّ هو الهبيد الذي يؤكل بعد معالجةٍ خاصةٍ وصنعةٍ شاقّة قال : فيحشون الهبيدَ في أوعيتهم . ثم يجيئون به الركيّة وهي البئر ويكونون قد حفروا حذاء الركيّة أي بجانبها زُبْيةً أي حفرةً على عمق قامتين كهيئة الركيّة (وأصل اسم الزُبية للحفرة التي يحفرونها في أعلى الرابية فيقع فيها الأسد ومنه المثل : بلغ السيلُ الزُبى) ثم نثروا (في تلك الحفرة) الفراند[1] حتى تمتلئ .

والفراند جمع فِرْند (بكسر فسكون فكسر) وهي الأبزار كما في اللسان . ومراده بالابزار هنا حُبوب الهبيد التي تناثرت من الحنظل عند خبطها بالعَمَد قال : وخدّوا من ركية الماء الى الحُفرة (التي فيها الأبزار) جدولاً وخرقوا للحفرة التي فيها (الأبزار) جدولاً يذهب ثَمَّ في البرية (يفعلون ذلك لئلا يغمر الماء الأبزار فتستنقع وتفسُد . فهم جعلوا للماء مسيلاً يخرج منه الى البريّة بعد مروره على حبوب الهبيد فتحلو رويداً رويداً من دون أن تفسد) وأخذوا بالدلاء يُجرُون في ذلك الجدول الذي يذهب اليه (هذه العبارة غير واضحة المراد) قال فإذا امتلأ (أي البئر الذي فيه حب الهبيد) بالماء جاء رجل أو رجلان بعودين يسميان السِطاعَين كأنهما رمحان فجعلا يحركان أبزار

(١) في الأصل الفرائد بالهمزة . ولم نجد لها معنى هنا . فصححناها بالفراند بالنون ومعناها ما ذكرنا . وقاتنا أن نذكر هذا التصحيح في مقال التصحيحات لأغلاط كتاب النبات المنشورة في الجزء الماضي ص ٣٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الهبيد بذينك العودين ويسوطانها (أي يخلطانها بتقليبها من تحت الى فوق ومن فوق الى تحت) قال: ويخرج الماء في الجدول البرّي كأن ذلك الماء بول البغل. فهؤلاء يسقون وذانك يسوطان والماء يخرج فيُمسون من عشيتهم وقد اصفرّ الماء والقومُ (العمال) دائبون يعملون الذي قلت لك: إن فتَروا عنه وترَك اللذان يسوطان سَوْطه ونقع فيه الماء عَلْقَمَ (أي صارت فيه عَلْقَمَة أي مرارة الحنظل) فلا يطيب أبداً. فان ثبتوا عليه (أي على السوط) ذلك اليوم والليلة المقبلة لم يفتروا عنه السقي (أي لم يحبسوا الماء عنه) ساعة بعد ساعة. فلا يزالون على ذلك حتى يجعلوا يشربون من الزُبية التي فيها الحنظل (يعني هبيد الحنظل وبزره إذ أن في شربهم له دلالةً على ذهاب علقمته) فاذا كان كذلك أخرجوه بغرفونه بالجفان والزُبُل (جمع زِبْيل وهو الزنبيل) حتى يستخرجوه كله. ثم يحشونه في أوعيتهم فيأتون به أهليهم (أي يرجعون اليهم من البرية حيث تكون معامل الهبيد) ويأتي دور النساء للمساعدة في اصطناع الهبيد وتقرّب المرأة مِرْصَعَيْنا. والمرصع صلاءة (أي صفيحة) عريضة من الحجارة. وفِيْراً (حجراً) مدورة تملأ الكف (هنا نحو ثلاثة أسطر قالها الراوي أبو زياد فيها عسلطة ونقص يتلخص منها أن المرأة تشدخ وترضخ الهبيد بالفِهر على الصَلاءة) فإذا رضخت من ذلك الذي تريد قَلَّ أو كثر وضعته في الجفنة ثم عجنته عجناً جيداً كما يُعجن العجين (ولا يغرب عن فكر القاريء أن المقادير الكبيرة يأتي بها الرجال من المعمل ويوزعونها بالشراء حُصَصاً على البيوت فتعالج كل ربة بيت حصتها من الهبيد فتعجنه) ثم ألزقته بجانب الجفنة ثم صبّت ماء ليس بكثير وتمرس عجينتها وتصب في مخلاة عندها حتى لا يبقى في هبيدها شيء ويخرج الماء أسود (مرارة الحنظل يضرب بشدتها المثل فالمرأة تعود فتصب الماء في المخلاة على الهبيد حتى لا يبقى فيه شيء من قشر ولا ماء أسود) فإذا أمسكت مخلاتها على قدَح وخرج الماء أبيض خالصاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نصبت برمتها (قدرها) وصبت فيها هذا الهبيد (لطبخه) وأوقدت قليلاً قليلاً فإذا غلا أحششت له الوقود (أي أكثرت من الإيقاد) فاذا دنا نضجه وخثر (أي جمد بعد الميوعة) خرجت فيه أساريع من سمن (أي ينفصل عن عجين الهبيد اذا نضج وجمد خطوط وطرائق برّاقة من دهن كالسمن) فتطعم منها قدحاً حسناً تحضنه في عكنتها (أي إنها تستفيد من الدهن فتنشله بقدح وتدخره في عكنتها) و (العكنة زُقيق صغير للسمن) فإن كان عندها تمر ألقت في عجين الهبيد النضيج قبضات منه حتى تعلوه الحمرة أو الشكلة (والشكلة الشقرة يعني أن لون التمر الأحمر ينفض على عجين الهبيد فيحمرّ أو يشقرّ) ثم أفرغت في جفنتها. فتعال فانظر: لا يزيدك عليه طعام يأكله الناس.

(وبعد أن وصل الأعرابي في وصفه لطبيخ الهبيد الى هذا الحد من ظهور السمن فيه وخلطه بالتمر حتى أكسبه لون الحمرة أو الشقرة وحتى جعله هذا الوصف أو هذا المنظر المتخيّل يتلحّز ويسيل لعابه من الشهوة الى ذلك الطعام الصحراوي اللذيذ ـ عندها رفع صوته قائلاً للقارئ فتعال وانظر الخ. وخ في إعجابه بطعام قومه الى أن جعله أفضل طعام يأكله الناس).

وإن لم يكن عند المرأة الأعرابية تمر جعلت على طبيخ الهبيد قبضات من دقيق فهو صالح وليس مثل التمر. وان لم يكن دقيق ولا تمر فان كان على الفسل الذي قلت لك (أي فإن كان الهبيد مغسولاً بالماء كما مر وصفه) رجّنوا فيه (لعل صوابه طاب ورجنوا فيه: أي طاب لهم أكله ورجنوا فيه فلم يعافوه: رجن في الطعام إذا لم يعفْ منه شيئاً كما في اللسان) وإن لم يكن فيه تمر ولا دقيق وكانوا ضعفوا عنه عند الفسل الأول (أي لم يُحكموا غسله) فبقيت فيه علقمة فأكلوه صرفاً ليس معه شيء (أي من إدام كالخبز مثلاً) جعل يأخذهم منه دُوار (في رؤوسهم) وسلحَ القوم (أي أسهل بطونهم) ولكنه يورثهم صحة) انتهت قصة اصطناع طعام الهبيد الذي لا يزيد عليه طعام يأكله الناس في اعتقاد الأعراب.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(الرمث في الأدب الجاهلي) والرمث (وهو من الحمض أي النباتات ذات الملوحة) مكانةٌ في أدب العرب وله في مجالس أسمارهم أخبار وملح يتطارحونها. وأوصاف تشبه الأحاجي يحمضون ويتسلّون بها. ولا جرم فإن الإبل نفسها تولع بالرمث فتحمّض به بعد أن تكون شبعت من نبات الخلّة وملت حلاوته. ويعلو الرمث على وجه الأرض مثل قعدة الرجل. وقال آخر يرتفع دون القامة. قالوا: وربما خرج من الرمث عسل أبيض كأنه الجمان واللؤلؤ! وهذه المادة الحلوة التي يفرزها الرمث يسونها المغافير وهي ذات حلاوة شديدة. وللمغافير ذكر في السنة النبوية وفي تفسير آية: (وإذ أسرّ النبيُّ الى بعض أزواجه حديثاً).

وللرمث حَطَب وقوده حارٌّ يستشفى بدخانه من الزكام. قال أعرابي وقد طاح (أي ضل وتاه) في بعض القُرى فمرض فسأله من يُمرّضه أيش تشتهي؟ فأنشد:

(قال الأطباء ما يشفيك قلت لهم دخان رمثٍ من التسرير يشفيني)

و(التسرير) اسم جبل، وقد اعتاد الأعرابي شم دخان رمثه أيام صحته فهو يتمنى أن يداوى بشمه لحين مرضه.

قالوا وفي دخان الرمث غُبرةٌ. ولذلك يشبه به لون الذئب: من ذلك قول كعب بن زهير يصف ذئباً:

(كأن دخان الرمث خالط لونه)

وقيل لأعرابي: ما تقول في الرمث؟ أي في طيب مرعاه للإبل فقال: (لو خلقت الإبل من شجر خلقت من الرمث) يريد أن من شدة ولعها بأكله تكاد أجسامها تتكون من الرمث لا من اللحم والدم. وأبلغ من ذلك ما روي أن (الأحوص بن جعفر) سيد بني عامر عمي في أخريات أيامه فكان بنوه يسوقون به. فوطئ بلداً (أي أرضاً) فسأل بنيه أيّ شيء ترتعي الإبل في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الأرض ؟ قالوا الرمث فقال ( خُلقت منه وخلق منها ) وليس أدلّ على ولع الإبل ووجدها بالرمث من هذا التعبير .

وقال الأصمعي سأل رجل من أهل الحضَر رجلاً من أهل البادية : هل عندكم ما يُرعى ؟ يسأله الحضري عما اذا كان في أرضهم مرعى تحبه الإبل وتجيدُ به ؟ وكما أن أهل الحضر يتهكمون بعقلية أهل البادية كذلك هؤلاء فانهم يهزؤون بالحضارة وعقلية أهلها . وقد حانت لهذا البدوي المسؤول الفرصة فسلك في جوابه مسلك الإلغاز والتعريض بغباوة الحضَري . قال الأصمعي : فأجابه البدوي وهو يهزأ به : ( نعم عندنا مُقمل ، ومُدبي ، وباقل ، وحانط ، وثامر ، ووارس ) وبديهي أن الحضري لم يفهم من هذا القول سوى أن مرعى أرض البدوي يشتمل على كل هذه الأعشاب . وهو خلاف ما أراده البدوي من أنه لا يوجد مرعى في أرضهم الا الرمث وحده الذي فيه غناء عن غيره . فيكون بجوابه ألغز وعمّى على الحضري وتهكّم به . وتفسير ذلك أن الرمث اذا تفطر أي تشقّقت أغصانه بالنبات كان أول ما يبدو منه هَناتٌ سود صغيرة تشبه القمل فيقال فيه أنه أقمل فهو مُقمل . ثم تكبر هذه الهنات السود وتتلوّن الى غُبرة فتعود تشبه الدَّبَى أي صغار الجراد قبل أن يقوى على الطيران . فيقال أن الرمث قد أدبى فهو مُدبي . فاذا ظهرت الخضرة على تلك الهَنات قيل له في طوره هـذا إنه قد أبقل فهو باقل أي ذو خضرة كخضرة البقل ( يقال باقل ولا يقال مُبقل ) وهذا الطور هو أول الإيراق أي ظهور الورق على الأشجار . وإيقال الرمث وإيراقه إن كان حاصلاً عن مطر كان مرعاه أحيا للإبل وأنجع وإن كان الايراق عن ( تروّح ) أي عن غير مطر وإنما عن رطوبة برد الليل وحدها كان جودة مرعاه على قدره . ثم بعد الإبقال ينتقل الرمث الى الطور الذي حان أن يُعطي فيه أُكلُه من الثمر فيقال إن الرمث قد أحنط وهو حانط ( ولا تقل محنط ) قال ( والحانط من كل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شيء المدرك ) ثم ينتقل الرمث إلى دور إعطاء الثمر واجتنائه . فيقال إنه قد أثمر فهو ثامر أي ذو ثمر ( ولا تقل مُثمر وانما الثمر الذي من شأنه أن يثمر لا ذو الثمر الذي عليه ثمره ) وبعد أن يُعطي الرمث ثمره وتنتهي وظيفته تأخذ أوراقه بالذُبول ويظهر عليها اصفرار كصفرة الورس ( الزعفران ) فيقال له حينئذ إنه قد أورس فهو وارس ( ولا تقل مورس ) : فأدوار الرمث ( أو كلُّ شجر سواه ) ستة : إقمال ، إدباه ، إبقال ، إحناط ، إثمار ، إيراس . وإذا وصفت قلت من الأولين على صيغة ( مفعل ) ( مُقمل . مدبي ) ومن الأربعة الأخر على صيغة ( فاعل ) باقل ، حانط ، ثامر ، وارس . والوارس وصف للذي يصفر من الأشياء نباتاً كان أو غيره ، فاذا كان في بستانك غَيل أي ماء جار تحت أشجاره وكان في قعر الساقية حجارة تراكب عليها الطُحلُب وهو النبات الملتي الأخضر الضارب الى صفرة ـ تقول في وصف تلك الحجارة :

( حجارةُ غَيلٍ وارسات بطُحلُب )

وارسات أي ذات صفرة بسبب تراكم الطحلب عليها . هذه الحجارة التي قد أورست لُفت اليها نظر امرئ القيس منذ القديم فشبه حوافر فرسه بها حين قال :

( ويخطو على صُمٍّ صلابٍ كأنها حجارةُ غَيلٍ وارساتٌ بطُحلب )

وللأصمعي في طور ( إحناط الرمث ) وهو الدور الرابع قول لم نفهمه وهو ( فاذا ابيض الرمث وأدرك قيل إنه حنط فهو حانط ) فما معنى الابيضاض في الرمث لحين إدراكه سوى البياض المعروف من الالوان ! وأيد أبو حنيفة قول الأصمعي بقوله بعده ( ولابيضاض الرمث في الوقت الذي ذكر الاصمعي قال الراجز وهو ( همبان بن قحافة ) يصف ناقته :

( ترعى من الصمّان روضاً آرجاً والرمثَ بالصريمة الكُنافجا )

( مثل الشيوخ أحرمت حواججا )



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقول : (آرجًا) أي ذو رائحة طيبة . و (الصريمة) الأرض ذات الرمل و (الكُناجا) صفة للرمث بمعنى أنه كثير أو بمعنى أن حبه مكتنز سمين . ثم شبه الشاعر الرمث (الذي قالوا انه يرتفع عن الأرض بقدر قعدة الرجل) بالشيوخ الحجاج المحرمين الذين تكون ثياب إحرامهم بيضاً . فهذا يؤيد قول الأصمعي بأن الرمث في طور إحتاطه ببيض ولا يمكن أن نقول ابيضاضه ناشئ عن يبس عيدانه فيكون لونها عند يبسها البياض لأن هذا الدور وُصف بالإدراك - وإدراك الثمر أو الشجر لا يكون معه يبس . وقد يقال ان المراد بالبياض في قول الأصمعي البياض الضارب الى صفرة فسماه بياضاً وأراد الصفرة وربما أيده ما قاله أبو حنيفة بعده (وزعموا أن الرمث اذا انتهى منتهاه في الإدراك اصفرّ صفرةً شديدةً حتى إنْ قارَفه (أي قاربه) إنسان اصفرّ ثوبه : أخبرني بذلك بعض الأعراب .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net